

مع سورة القمر

نَّ وَالْقَلْمَ وَمَا يَسْطِرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنُعْمَةِ رَبِّكَ
بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا عَظِيمٌ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ
خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ فَسَتُبَصِّرُ وَبَصِرُونَ ۝ بِآيَاتِكُمُ الْمُفْتَوْنَ ۝
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّدِينَ ۝

د. خالد النجار

مع سورة القلم

سميت هذه السورة في معظم التفاسير وفي «صحيح البخاري» "سورة نْ وَالْقَلْمِ" على حكاية اللفظين الواقعين في أوصافها، وترجمها الترمذى في جامعه وبعض المفسرين سورة ﴿ن﴾ بالاقتصار على الحرف المفرد الذى افتتحت به، مثل ما سميت سورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿ق﴾. وفي بعض المصاحف سميت "سورة وَالْقَلْمِ" وكذلك تسميتها في مصحف خطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية، قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأowيل.

وفي «تفسير القرطبي»: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل. واتفق العادون على عد آيتها ثنتين وخمسين.

جاء في هذه السورة بالإيماء بالحروف الذى في أوصافها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: ﴿وَالْقَلْمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1]. وابتدئت بخطاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تأنيسا له وتسليه عما لقيه من أذى المشركين. وإبطال مطاعن المشركين في النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتشييه.

وأكَدَ ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقباهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن.

ثم أنهى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذممات كثيرة وتوعدهم بعذاب الآخرة وبيلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلا من غرهم عزهم وثراوهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين الحقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن آلة المشركين لا تغنى عنهم شيئاً من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوها به دعوة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأمر رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه، وأن لا يضجر في ذلك ضجراً عاتب الله عليه نبيه يومن عليه السلام.

نَ وَالْقَلْمَ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْثُونٍ (3)

﴿ن﴾ اسم للحرف المعروف، قصد به التحدي. أو اسم للسورة.

وهذه أول سورة نزلت مفتتحة بحرف مقطع من حروف الهجاء. ورسموا حرف ﴿ن﴾ بصورةه التي يرسم بها في الخط، وكان القياس أن تكتب الحروف الثلاثة لأن الكتابة تبع للنطق والمنطق به وهو اسم الحرف لا ذاته، وإنما هنا يقرأ باسم الحرف لا بحائه.

﴿وَالْقَلْمَ﴾ الذي يخاطبه ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون من سطور.

قسم يجري على سنن الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى أن تكون بأشياء معظمة دالة على آثار صفات الله تعالى.

فهو قسم منه تعالى، وأيضاً تنبية خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تناول العلوم.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: "إِنَّ اللَّهَ يُقْسِمُ بِمَا يُقْسِمُ بِهِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لِأَنَّهَا آيَاتُهُ وَمَخْلُوقَاتُهُ. فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوَّهِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَسِيَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُفْسِمُ بِهَا؛ لِأَنَّ إِقْسَامَهُ بِهَا تَعْظِيمٌ لَهُ سُبْحَانَهُ. وَنَحْنُ الْمَخْلُوقُونَ لَيْسَ لَنَا أَنْ نُقْسِمَ بِهَا بِالنَّصْ وَالْإِجْمَاعِ".

وقد فصل الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- الحكمة في قسم الله بخلوقاته بقوله: "إِنْ قِيلَ: مَا الْفَائِدَةُ مِنْ إِقْسَامِهِ سُبْحَانَهُ مَعَ أَنَّهُ صَادِقٌ بِلَا قَسْمٍ؛ لَأَنَّ الْقَسْمَ إِنْ كَانَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيُصَدِّقُونَ كَلَامَهُ فَلَا حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ فَلَا فَائِدَةٌ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كُلَّ آيَةٍ مَا تَبْغُوا قِبْلَتَكُمْ﴾ [البقرة: 145] أَجِيبُ: أَنَّ فَائِدَةَ الْقَسْمِ مِنْ وِجْوهِهِ:

الأول: أَنَّ هَذَا أَسْلُوبُ عَرَبِيٍّ لِتَأكِيدِ الْأَشْيَاءِ بِالْقَسْمِ، وَإِنْ كَانَتْ مَعْلُومَةٌ عِنْدِ الْجَمِيعِ، أَوْ كَانَتْ مُنْكَرَةٌ عِنْدِ الْمُخَاطِبِ، وَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.

الثاني: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَزْدَادَ يَقِينًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا مَانِعٌ مِنْ زِيَادَةِ الْمُؤْكِدَاتِ الَّتِي تَزِيدُ فِي يَقِينِ الْعَبْدِ، قَالَ تَعَالَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْمَّ تُؤْمِنَ فَقَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنُ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]

الثالث: أَنَّ اللَّهَ يَقْسِمُ بِأَمْرِهِ عَظِيمَةَ دَالَّةَ عَلَىٰ كَمَالِ قَدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَكَأَنَّهُ يَقِيمُ فِي هَذَا الْمُقْسِمِ بِهِ الْبَرَاهِينَ عَلَىٰ صَحَّةِ مَا أَقْسِمَ عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ عَظِيمٍ مَا أَقْسِمَ بِهِ.

الرابع: التَّنْوِيهُ بِحَالِ الْمُقْسِمِ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْسِمُ إِلَّا بِشَيْءٍ عَظِيمٍ، وَهَذَا الْوَجْهُانَ لَا يَعُودُنَا إِلَى تَصْدِيقِ الْخَبَرِ، بَلْ إِلَى ذِكْرِ الْآيَاتِ الَّتِي أَقْسِمَ بِهَا تَنْوِيهًَا لَهُ وَتَنْبِيهًَا عَلَى عَظِيمِهَا.

الخامس: الْإِهْتِمَامُ بِالْمُقْسِمِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِالْعِنَاءِ وَالْإِثْبَاتِ".

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْقَسْمِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابُ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ مَكْتُوبًا مَقْرُوءًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِكِتَابَةِ مَا يُوحَىُ بِهِ إِلَيْهِ. وَتَعْرِيفُ الْقَلْمَنْ [الْقَلْمَنْ] تَعْرِيفُ الْجِنْسِ.

فَالْقَسْمُ بِالْقَلْمَنْ لِشَرْفِهِ بِأَنَّهُ يَكْتُبُ بِهِ الْقُرْآنُ وَكَتُبَتْ بِهِ الْكِتَابُ الْمُقْدَسُ وَتَكْتُبُ بِهِ كِتَابُ التَّرْبِيَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمِ وَكُلُّ ذَلِكَ مَا لَهُ حَظٌ شَرْفٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَهَذَا يَرْجُحُهُ أَنَّ اللَّهَ نَوَّهَ بِالْقَلْمَنْ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الْعَلْقَ: 3-5].

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ "بِنِعْمَةِ رَبِّكَ" كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ. وَالْمَعْنَى: انتَفَى عَنِّكَ الْجُنُونُ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ، كَمَا يُقَالُ: أَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ عَاقِلٌ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهِمُ.

و معناه: أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعم الله ولطفه وإكرامه.

﴿يَمْجُنُونٌ﴾ جواب القسم، قصد به تكذيب المشركين في إفکهم المحدث عنه بآية: **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** [الحجر: 6] **﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾** ثواباً على إبلاغك رسالة ربك إلىخلق، وصبرك على أذى المشركين واحتمال هذا الطعن والصبر عليه. **﴿غَيْرَ مَمْنُونٌ﴾** غير منقوص ولا مقطوع.

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ﴾ للاستعلاء المجازي المراد به التمكّن، كقوله: **﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِنْ رَّحْمَمْ﴾** [البقرة: 5] ومنه قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحُقْقِ الْمُبِينِ﴾** [النمل: 79]، **﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الزخرف: 43]، **﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الحج: 67]. **﴿خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** والعظيم: الرفيع القدر وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.

والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن.

قال ابن جرير: أي: أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه. قالت عائشة: "كان خلق رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- القرآن" أي ما تضمنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم، والنهي عن أصدادها.

قال الرازى: "وهذا كالتفسیر لقوله: **﴿بِنْعَمَةِ رَبِّكَ﴾** والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به، لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية، والفصاحة التامة، والعقل الكامل، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، كانت ظاهرة منه. وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافي حصول الجنون؛ فكذب من أضافه إليه وضل، بل هو الأخرى بأن يرمى بما قذف به".

وقال ابن كثير: "معنى هذا أنه -عليه السلام- صار امثال القرآن، أمراً ونبياً، سجية له، وخلقًا تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاد عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياة والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل.

كما ثبت عن أنسٍ -رضي الله عنه- قال: "خدمت النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عشرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أَفِّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لَمْ صَنَعْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لَمْ تَرَكْتَهُ،" وكان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ حُلْقًا، وَلَا مَسَنْتُ حَزَّا قَطُّ وَلَا حَوِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". [الترمذى]

وقال حسن صحيح]

وفي مسند أحمد عن عائشة، قالت ما ضرب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا امْرَأًا، وَلَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا خُبْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ، إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرُهُمَا، حَتَّى يَكُونَ إِنْهَا، فَإِذَا كَانَ إِنْهَا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْإِيمَنِ، وَلَا انتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، حَتَّى تُنْتَهِكَ حُرْمَاتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَكُونُ هُوَ يَنْتَقِمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" [صحيح على شرط الشيفين]

وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن، قال رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتْقِمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) [السنن الكبرى للبيهقي] وفي رواية: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) [صحيح الجامع]، فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أكبر مظهر لما في شرعيه، قال تعالى: ﴿تُمُّ جَعْلَنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 18] وأمره أن يقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 163].

فكمًا جعل الله رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على خلق عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى الاستطاعة.

وبهذا يزداد وضوحاً معنى التمكّن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية.

واعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتابعة، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والرهد، والعفة، والغفو، والجمود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقته وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكنه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومن لنظره، وما يترب على ذلك من حرمته عند الناس وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ففي ذلك كله وفي سياسيته أمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه.

﴿فَسَتُبَصِّرُ وَيُبَصِّرُونَ﴾ (5) **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ**
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّدِينَ﴾ (7) **﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾** (8) **﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ**
فَيُدْهِنُونَ﴾ (9)

﴿فَسَتُبَصِّرُ وَيُبَصِّرُونَ﴾ أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة.

﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: 26]، وكقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24].

والمفتون وهو الذي أصابته فتنـة، أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، والباء مزيدة لتأكيد تعلق الفعل ب فعله والأصل: أيكم المفتون، فهي كالباء في قوله: **﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم﴾** [المائدة: 6].

وقيل: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من الجنون.

أو من كُوشف بأسرار العلوم وأوقي جوامع الكلم، أم من حجب عما في نفسه من آيات الله وال عبر وفقن بعبادة الصنم؟!.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ضل عن طريق الحق الذي أمر به.
 ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ من اتبع الحق وسلك سبيله، فسيجزي الفريقين.
 تعليل جملة: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبَصِّرُونَ، بِإِيمَانِ الْمَفْتُونِ﴾ باعتبار ما تضمنته من التعرض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6]
 ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وما جاءهم من الحق. قال الرمخشري: "تبيّح وإهاب على معااصاهم".

واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف لأنّه منزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فإن النهي عن طاعتهم لأنّهم كذبوا رسالته.

﴿وَدُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون.
 أي: ودوا لو تلين لهم في دينك بإجابتكم إياهم إلى الركون إلى آهتهم، فيلينون لك في عبادتك إهلك، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتَنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً فَلِيَلَا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: 74-75]، وإنما هو مأخوذ من الدهن، شبه التلين في القول بتلين الدهن.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَافِ مَهِينِ﴾ (10) همّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتكم للاهتمام بهذا الأدب فلم يكتف بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: "ولا كل حلاف"، بل جيء في جانبهم بصيغة هي أخرى مماثلة للأولى.

﴿كُلَّ﴾ موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم التي تضاف هي إليه، فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها ﴿كُلَّ﴾ بال مباشرة وبالنوع.

ولا يفهم منه أن النهي منصب إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات بحيث لو أطاع بعض أصحاب هذه الصفات لم يكن مخالفًا للنهي إذ لا يخطر ذلك بالبال ولا يجري على أساليب الاستعمال، بل المراد النهي عن طاعة كل موصوف بخصلة من هذه الخصال بله من اجتمع له عدة منها. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كُفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]

وأجريت على المنهي عن الإطاعة بهذه الصفات الذميمة لأن أصحابها ليسوا أهلا لأن يطاعوا إذ لا ثقة بهم ولا يأمرن إلا بسوء.

وذكرت عشر خلال من مذامهم التي تخلقوا بها:

﴿خَلَافٍ﴾ كثير الحلف. قال الزمخشري: وكفى به مجزرة من اعتاد الحلف، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 224].

قال ابن عاشور: والخلاف: المكثر من الأيمان على وعوده وأخباره، وأحسب أنه أريد به الكنية عن عدم المبالغة بالكذب وبالأيمان الفاجرة فجعلت صيغة المبالغة كنية عن تعمد الحث، وإن لم يكن ذمه بهذه المثابة.

﴿مَهِينٍ﴾ ذليل حقير الرأي والتمييز، وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. **﴿هَمَازٌ﴾** عياب طعن.. وأصل الهمز: الطعن بعوْد أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة، وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة، وفي التنزيل **﴿وَيَلٌ لِّكُلِّ هُمَزٍ﴾** [الهمزة: 1].

وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديدا فصاحبها **﴿هَمَازٌ﴾**، وإذا تكرر الأذى فصاحبها **﴿هَمَازٌ﴾**.

﴿مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ﴾ نقل لحديث الناس بعضهم في بعض للإفساد بينهم. ووصفه بالمشاء للمبالغة، فهي استعارة لتشويه حاله بأنه يتجمّش المشقة لأجل النميمة، مثل ذكر السعي في قوله تعالى: **﴿وَيَسْعَونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾** [المائدة: 33]. ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعا في تصور السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمام.

روى البخاري عن ابن عباس قال مر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقبرين فقال: (إِنَّمَا لَيَعْذَبُنِي، وَمَا يُعَذِّبُنِي فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَرِّ مِنَ الْبُولِ، وَأَمَّا الْأُخْرَ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ). ثم أَخَذَ جَرِيَّةً رَطِبَةً فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ فَغَرَّ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال: (لَعْلَهُ يُخْفِفُ عَنْهُمَا مَا مُّتَبَّسَا).

وروى مسلم عن همام بن الحارث قال كان رجلاً ينقل الحديث إلى الأمير فكانت جلوساً في المسجد فقال القوم هذا من ينقل الحديث إلى الأمير قال فجاء حتى جلس إلينا فقال حذيفة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (لا يدخل الجنة قتات). يعني: غمام.

وروى أحمد عن أسماء بنت يزيد، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (ألا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ) قالوا: بل يا رسول الله قال: (الذين إذا رأوا ذكر الله تعالى) ثم قال: (ألا أُخْبِرُكُمْ بِشَرَارِكُمْ؟ المُشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ [المتمنون] لِلْبُرَاءِ الْعَنَتِ) أي: المشقة والهلاك. [حسن بشواهده]

وروى أحمد عن شهري بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، يبلغ به النبي - صلى الله عليه وسلم -: (خيار عباد الله الذين إذا رأوا ذكر الله، وشاروا عباد الله المشاءون بالنميمة، المفترقون بين الأحبة، الباغون البراء العنات) [حسن بشواهده]

﴿مَنَّاعٌ﴾ شديد المنع بصيغة المبالغة ﴿لِلْخَيْر﴾ الخير من أسماء «الحال» قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحِبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا أَوْصِيَةً لِلْوَالِدِينِ وَالْأَقْرَبِينَ..﴾ [البقرة: 180]

والمراد بمنع الخير: منعه عنمن أسلم من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً، وهذه شنشنة عرفوا بها من بعد، قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: 7].

وأيضاً فمن منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة، فلا يعطون الضعفاء، وإنما يعطون في الجامع والقبائل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامٍ

المسكين》 [الفجر: 18] قيل: كان الوليد ابن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفا يطعم أهل مني، ولا يعطي المسكين درهما واحدا.

وقد روّي تمثيل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي: حلف، هماز، مشاء، مناع وهو ضرب من محسن الموازنة.

﴿مُعْتَدِلُ أَثِيمٍ﴾ قرن بينهما ملائكة الخصوص والعموم.

والاعتداء: مبالغة في العدوان فالافتعال فيه للدلالة على الشدة، فهو معندي على الناس متتجاوز في ظلمهم.

والأشيم: كثير الإثم وهو فعل من أمثلة المبالغة، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْوُمَ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: 43-44]. والمراد بالإثم هنا ما يعد خطيئة وفسادا عند أهل العقول والمرءة وفي الأديان المعروفة.

﴿عُتُلٌ﴾ اسم وليس بوصف لكنه يتضمن معنى صفة لأنها مشتقة من العتل، وهو الدفع بقوة، قال تعالى: ﴿خُدُوْهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 47]

وفسر العتل بالشديد الخلقة الرحيب الحوف، وبالأكول الشروب، وبالغشوم الظلوم، وبالكثير اللحم المختال.. جاف فظ غليظ، جموع متنوع.

ونص غير واحد من السلف، منهم مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقادة، وغيرهم: أن العتل هو: **المُصَحَّحُ الْخَلْقُ**، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك.

روى البخاري عن حارثة بن وهب الخزاعي قال سمعت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُنْصَعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍ جَوَاطِ [الضم الخ المختال في مشيته] مُسْتَكْبِرٍ).

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (إِنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِي [الفظ الغليظ] جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ، جَمَاعٍ [للمال] مَنَاعٍ [للحق فيه]، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الْضُّعَفَاءُ الْمَغْلُوبُونَ).

وفيه أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال عند ذكر أهل النار: (كُلُّ جَعْظَرِي جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ مَنَاعٍ).

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال ابن جرير: ومعنى **بَعْدَ** في هذا الموضع معنى (مع).

قال الشهاب: الإشارة لجميع ما قبله من النكائص لا للأخير فقط وهي للدلالة على أن ما بعده أعظم في القباحة.

أي: علاوة على ما عدد له من الأوصاف هو سيء الخلقة سيء المعاملة، فالبعدية هنا بعدية في الارتفاع في درجات التوصيف المذكورة، فمفادها مفاد التراخي الرتبى كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازوات: 30]

﴿زَنِيم﴾ دعى في القوم ملصق في النسب وليس منهم، إما بغمز في نسبه، وإما بكونه حليفا في قوم أو مولى.

وسئل عكرمة عن الزنيم، فقال: "هو ولد الزنا".

وعن ابن عباس: هو المُرِيب الذي يعرف بالشر.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ﴾ هذا مقابلة ما أنعم الله عليه كونه متمولاً مستظهراً بالبنين فكذب بآياتنا.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ تقرأ عليه آياتنا ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذا مما كتبه الأولون، استهزاء به، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله.

وليس المراد من جمع هذه الخلال بل من كانت له واحدة منها، والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن الذي ختم بها قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، لكن الذي قال في القرآن إنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هو الوليد بن المغيرة، فهو الذي اخترق هذا البهتان في قصة معلومة، فلما تلقف الآخرون منه هذا البهتان وأعجبوا به أخذوا يقولونه فكان جميعهم من يقوله، ولذلك أنسد الله إليهم هذا القول في آية: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5].

﴿سَتَسِمُّهُ عَلَى الْخُرْطُوم﴾ أصله سموسه من الوسم وهو إحداث السمة أي العلامة، والمعنى سنجعل له سمة وعلامة يعرف بها بالكي على أنفه الذي هو أكرم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله، وكنية عن التمكّن منه وإظهار عجزه.

وقد كان الوسم للإبل ونحوها، جعل سمة لها أنها من مملوکات القبيلة أو المالك المعين. فالمعنى: سنعامله معاملة يعرف بها أنه عبدنا وأنه لا يغنى عنه ماله وولده منا شيئاً.

فهو عدّه منه تعالى بغاية إدلاله، بعد تناهي كبره وعجبه وزهوه وعتوه. تقول العرب: وسمته بجسم السوء، يريدون أنه أصلق به من العار مالا يفارق.

قال الزمخشري: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه، لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، قالوا: الأنف في الأنف، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنيين. قالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه.

فَعَّبَرَ بِالْوَسْمِ عَلَى الْخَرْطُومِ عَنْ غَايَةِ الْإِذْلَالِ وَالْإِهَانَةِ، لَأَنَّ السَّمَةَ عَلَى الْوَجْهِ شَيْنٌ وَإِذَالَةٌ، فَكَيْفَ بِهَا عَلَى أَكْرَمِ مَوْضِعِهِ؟ وَلَقَدْ وَسَمَ الْعَبَّاسَ أَبَا عَوْرَهُ فِي وُجُوهِهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَكْرَمُوا الْوَجْهَ)، فَوَسَمُهَا فِي جُوَاعِرَهَا [ناحيتا الوركين حول الدبر]. وَقَيْلٌ: لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل. وَقَيْلٌ: سنعلمه يوم القيمة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة، كما عادى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عداوة بان بها عنهم. انتهى.

قال الزيلعي في حديث (أكرموا الوجوه) غريب بهذا اللفظ، وروى مسلم في صحيحه في كتاب اللباس من حديث عن يزيد بن أبي حبيب أن ناعماً أبا عبد الله مؤلي أم سلمة حدثه الله سمع ابن عباس يقول: ورأى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حماراً موسوم الوجه فأنكر ذلك قال فوالله لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه فامر بحمار له فكوي في جاعريته فهو أول من كوى جاعريتين.

قال النووي: وأما الجاعريتان فهما حرف الورك المشرفان مما يلي الدبر، وأما القائل: "فوالله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه" هو العباس بن عبد المطلب.. قال القاضي وهو في كتاب مسلم مشكل يوهم أنه من قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والصواب أنه من قول العباس رضي الله عنه.

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17)
 وَلَا يَسْتَثِنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)
 فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَّثُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ
 عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا
 لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْمَ أَقْلَنْ لَكُمْ لَوْلَا
 شَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَغْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا
 أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعْنَةُ الْآخِرَةِ
 أَكْبُرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ ضمير الغائبين في قوله: ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ يعود إلى ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: 8]. والجملة مستأنفة دعت إليه مناسبة قوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 14-15] فإن الازدهار والغرور بسعة الرزق المفضيin إلى الاستخفاف بدعاوة الحق وإهمال النظر في كنهاها ودلائلها قد أوقع من قديم الزمان أصحابها في بطر النعمة وإهمال الشكر فجر ذلك عليهم شر العواقب، فضرب الله للمشركيin مثلا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم.

﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الجنة: البستان المشتمل على أنواع الشمار والفاكهه..
 ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قوم من أهل الكتاب، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به تعين أهله، لولا محبة المؤثر.

والبلوى المذكورة هنا بلوى بالخبر فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمـة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسـر لهم سـبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيـلاف بـرحلة الشـتاء ورـحلة الصـيف، فـلما أـكمـلـ لهمـ العـمـةـ بـإـرـسـالـ رسـولـ مـنـهـمـ ليـكـمـلـ لهمـ صـلاحـ أحـواـهمـ وـيـهـدـيـهـمـ إـلـىـ ماـ فـيـهـ النـعـيمـ الدـائـمـ فـدـعـاهـمـ وـذـكـرـهـمـ بـنـعـمـ اللهـ أـعـرـضـواـ وـطـغـواـ وـلـمـ

يتوجهوا بالنظر إلى النعم السالفة ولا النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم. فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة في امتحانهم الآتي، ثم دمارهم. وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلتحقهم ما لحق أصحاب الجنة من المؤس بعد النعم، والقطط بعد الخصب.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ وهذا يقتضي أن بعضهم كان متربداً في موافقتهم على ما عزموا عليه، وأنهم أجهموا بالقسم وهذا الذي يلائم مع قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقْلُنْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْبِّحُونَ﴾ [القلم: 28]

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ الصرم: قطع الشمرة وجذاذها.. حلفوا فيما بينهم ليقطعن ثمرها مبكرين لثلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفّر ثمرها عليهم ولا يتصدّقوا منه بشيء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولم يقولوا: إن شاء الله، أي مبلغ غرورهم بقوّة أنفسهم صاروا إذا عزموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقاً. أو لا يستثنون من الشمرة شيئاً للمساكين.

وعلى الروايات كلها يعلم أن أهل هذه الجنة لم يكونوا كفاراً، فوجه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل هو: بطر النعمة والاغترار بالقوّة.

﴿فَطَافَ﴾ الطواف: المشي حول شيء من كل جوانبه يقال: طاف بالكعبة، وأريد هنا تمثيل حالة الإصابة لشيء كله بحال من يطوف بمكان.

﴿عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾ تنوين ﴿طائِف﴾ للتعظيم، أي أمر عظيم وقد بينه قوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم﴾ فهو طائف سوء.

﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ فطرق جنة هؤلاء القوم، طارق من أمر الله لتدميرها.. قال ابن جرير: ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلاً، ولا يكون نهاراً.

﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ مستغرقون في سباتهم، غافلون عما يكرّ بهم. تأكيد على الأول، وتأسيس على الثاني.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم﴾ كالبستان الذي صرم ثمره بحيث لم يبق فيه شيء، أو كالليل الأسود لا حتراقتها.

والصريم من أسماء الليل ومن أسماء النهار لأن كل واحد منها ينصرم عن الآخر

وقيل الصريم: الرماد الأسود بلغة جذيمة أو خزيمة.

وقيل الصريم: اسم رملة معروفة باليمن لا تنبت شيئاً.

وإيشار كلمة الصريم هنا لكثره معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية.
وعجل العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه
حق أئم مانعون صدقائهم فكانوا مانعين، ويؤخذ من الآية موعظة إلى الذين لا يواسون
بأموالهم أن الله تعالى قد يعجل لهم العقوبة.

﴿فَتَنَادُوا﴾ فنادى بعضهم بعضاً، وهو مشعر بالتحريض على الغدو إلى جنتهم
مبكرين.

﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصبح ليذهبوا إلى الجدأذ، ولم يشعروا بما جرى جنتهم بالليل.
﴿أَنِ اغْدُوا﴾ أخرجوا غدوة وهي أول النهار ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ زرعكم، وقد يطلق
الحرث على الجنة لأنهم يتعاهدونها بالحرث لإصلاح شجرها.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ قاصدين قطع ثمارها، وقد قطعها البلاء من أصلها.
﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَّتُونَ﴾ يتاجون ويتشارون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً
كلامهم.

﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ﴾ قال الزمخشري: والنهي عن الدخول للمسكين، نهي لهم
عن تكينه منه. أي: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل، كقولك: "لا أريئنك هاهنا"
﴿عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ فقير
﴿وَغَدَوا عَلَى حَرْدٍ﴾ في الحرد أربعة أقوال:

الأول: المنع.. ونزل فلان حريراً، أي: متنع عن مخالطة القوم. وحاردت السنة:
منعت قطرها، والناقة منعت درها.

الثاني: القصد القوي والسرعة.. أي: غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعةٍ.

الثالث: الغضب.

الرابع: اسم الجنة.

﴿قَادِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون من القدرة، أي قادرين في زعمهم أو قادرین على
إصابة خيرها ومنافعها أو التضييق أي ضيقوا على المساكين.

والمعنى: وساروا في أول النهار إلى حديقتهم على قصدهم السيئ في منع المساكين من ثمار الحديقة، وهم في غاية القدرة على تنفيذه في زعمهم.

وقيل: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِين﴾ أي على نكٍ، والمعنى أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَتَنَكَّدُوا على المساكين ويحرموهُم، وهم قادرُونَ على نفعِهِم فَغَدُوا بِحَالٍ لَا يَقْدِرُونَ فِيهَا إِلَّا عَلَى النَّكٍ وَالْحَرْمَانِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ طَلَبُوا حِرْمَانَ الْمَسَاكِينَ فَتَعَجَّلُوا الْحِرْمَانَ وَالْمَسْكَنَةَ.

والتعبير بقادرين على الحرد دون أن يقول: وغدوا حادرين تهكم لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها، قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 264] وقال: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 4] فقوله: ﴿عَلَى حَرْدٍ قَادِرِين﴾ على هذا الاحتمال من باب قوله: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ متعلقاً بـ ﴿غَدَوْا﴾ مبيناً لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط، مقدرين أَنَّهُمْ قادرون على تحقيق ما أرادوا.

وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا، دل عليه قوله بعده ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: 26]، وقوله قبله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رِّبَّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

وإذا أريد بالحُرد الغضب والحنق فإنه يقال: أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتلون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبشير إلى جذادها، أي لم يقدروا إلا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة.

وعن السدي: أن ﴿حَرْد﴾ اسم قريتهم، أي جنتهم. وأحسب أنه تفسير ملتقى [التحرير والتنوير]

اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة، فإن العرب لم يعيروا معلقة أمرى القيس ولا معلقة طرفة. قال أبو العباس المبرد: وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع في كلام

أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه.

وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوت في مضماره جياد ألسنتهم، وكان الجلي فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل، وهو ما فسر به حديث: (أنزل القرآن على سبعة أحرف)، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللهجات وأخفها وتجنب المكرور من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقي الأسماع له ورسوخه فيها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾ [القمر: 17]

وما أعدد في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة، وأشملها معان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقتصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها، ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها مثل إشار كلمة «حرب» في قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: 25] إذ كان جميع معاني الحرب صالحًا للإرادة في ذلك الغرض، أو مجازات أو استعارات أو نحوها مما تنصب عليه القرآن في الكلام.

﴿قَادِرِينَ﴾ وإذا كان القدر لا ينافي الأسباب الكونية والشرعية فهو لا ينافي أن يكون للعبد إرادة وقدرة يكون بحثاً فعله، فهو مرید قادر فاعل لقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]. قوله: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: 25]. قوله: ﴿وَأَنُّوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوَعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَسْبِيَّةً﴾ [النساء: 66]. قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: 46].

لكنه غير مستقل بإرادته وقدرته وفعله، كما لا تستقل الأسباب بالتأثير في مسبباتها لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوين: 28-29]. ولأن إرادته وقدرته وفعله من صفاته وهو مخلوق، فتكون هذه الصفات مخلوقة أيضاً، لأن الصفات تابعة للموصوف، فالخالق الأعيان خالق لأوصافها. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ فلما صاروا إليها، ورأوها محترقاً حرثها ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُولُونَ * بَأْنَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أنكروها وشكوا فيها: هل هي جنتهم أم لا؟ فقال بعضهم لأصحابه: ظناً منه

أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التي رأوها غيرها: إنها أيها القوم لضالون طريق جنتنا! فقال من علم أنها جنتهم، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن أيها القوم، محرومون، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها.

فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدهم وأخيرهم وخيرهم رأياً، وليس المراد أوسطهم سنا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا﴾ [البقرة: 143] أي خياراً عدواً.
﴿أَلَمْ أَقْلُنْ لَكُمْ لَوْلَا﴾ حرف تحضيض ﴿تُسَيِّحُونَ﴾ تنزيه الله عن أن يعصي أمره في شأن إعطاءه زكاة ثمارهم.

أو تذكرون الله وتتوبون إليه من حيث نيتكم، وتخشون انتقامته من المجرمين. وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة، فعصوه، فعيرهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في ترك استثناء حق المساكين ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة.. أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينفع.
﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ والإقبال: حقيقته المحبة إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القبل وهو ما يbedo من الإنسان من جهة وجهه ضد الدبر، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللهم.

﴿يَتَلَاقُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً. واللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول وهو دون التوبية وفوق العتاب.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِيْنَ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى في تفريطنا وعزمنا السيئ.
﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ بتوبتنا إليه، وندمنا على خطأ فعلنا، وعزمنا على عدم العودة إلى مثله.

﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ في العفو عما فرطنا، والتعويض عما فاتنا. والمقصود من الإطباب في قولهم بعد حلول العذاب بهم تلقين الذين ضرب لهم هذا المثل بأن في مكتنفهم الإنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إله له عليه.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ملئ خالق الرسل، وكفر بالحق، وبغى الفساد في الأرض.. رجوع إلى تهديد المشركين المبدوء من قوله: **﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾**.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** لارتدعوا وتابوا وأنابوا.

﴿وَضَمِير﴾ **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله: **﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾**، وهم «المشركون» فإنهم كانوا ينكرون عذاب الآخرة فهددوا بعذاب الدنيا، ولا يصح عوده إلى **﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾** لأنهم كانوا مؤمنين بعذاب الآخرة وشدة.

قيل: كانوا من أهل الحبشه، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغلها منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدخـر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل. فلما مات ورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمقـ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو **أَنَّا** معناهم لتتوفر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك **عُوْقِبُوا** بـنقـيضـ قـصـدهـمـ، فـأـذـهـبـ اللـهـ ماـ بـأـيـدـيـهـمـ بالـكـلـيـةـ، رـأـسـ الـمـالـ الـرـبـحـ وـالـصـدـقـةـ، فـلـمـ يـقـ لـهـمـ شـيـءـ.

قال في «الإكيليل»: «قال ابن الفرس: استدل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبدل أو خلط، فإن ذلك لا يسقطها، ووجه ذلك: أنهم قصدوا بقطع الشمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم. وفيها كراهة الجذاذ والخصاد بالليل، كما ورد التصريح بالنهي عنه في الحديث، لأجل الفقراء».

والحديث الذي يقصد ما رواه البيهقي في «السنن الكبرى» عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هُنَّ عَنِ الْجَدَادِ [صرام التخل وهو قطع ثمرتها] بالليل، والخصاد بالليل. قال جعفر: أرأه من أجل المساكين.

وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سُئل عن أصحاب الجنة: أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعباً. وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيراً منها، والله أعلم.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ
(35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ
لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْيَرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَهْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ
لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلَيَأْتُو
بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ استئناف بياني لأن من شأن ما ذكر من عذاب الآخرة
للمجرمين أن ينشأ عنه سؤال في نفس السامع بقوله: فما جزاء المتقين؟
وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بشأن المتقين ليسق ذكر صفتهم العظيمة
ذكر جزاءها. واللام للاستحراق. والعنديه هنا عنديه كرامة واعتناء.

﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وإضافة ﴿جَنَّاتٍ﴾ إلى ﴿النَّعِيم﴾ تفيد أنها عرفت به فيشار
بذلك إلى ملازمة النعيم لها، فلا يكون فيها ما يكون من جنات الدنيا من المتابع مثل
الحر في بعض الأوقات أو شدة البرد أو مثل الحشرات والزنابير، أو ما يؤذى مثل شوك
الأزهار والأشجار وروث الدواب وذرق الطير.

﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ الهمزة للاستفهام الاستنكاري ﴿الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ في الكرامة
والمحبوبة الحسنة، والعاقبة الحميدة.

والاستفهام وما بعده من التوبيخ، والتخطئة، والتهكم على إدلاهم الكاذب،
ومؤذن بأن ما أنكر عليهم ووبخوا عليه وسفهوا على اعتقاده كان حديثا قد جرى في
نواديهم أو استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بعث، وفرضهم أنه
على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون لل المسلمين مزية وفضل عند وقوعه.

وعن مقاتل لما نزلت آية ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ قالت قريش: إن
كان ثمة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدنيا، وعن ابن عباس أنهم قالوا: إننا
نعطي يومئذ خيرا مما تعطون فنزل قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ الآية.

وإنكار جعل الفريقين متباينين كنائية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة
وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى «التضاد» في الخير والشر في

القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمْنَ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوْنَ﴾ [السجدة:18]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر:20]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ﴾ [ص:28]

﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام استنكاري فيه التفات ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما ينبو عنه العقل السليم، فإنهم لا يستويان في قضيته.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرِسُونَ﴾ إضراب انتقال من توبیخ إلى احتجاج على كذبهم.. والاستفهام المقدر مع ﴿أَمْ﴾ إنكار لأن يكون لهم كتاب، إنكارا مبنيا على الفرض وإن كانوا لم يدعوه.

وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أميون ليسوا أهل كتاب وأنهم لما جاءهم كتاب هديهم وإنما عليهم بالآدم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوا.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ﴾ أصله تتخرون ببناءين، حذفت إحداهما تخفيفا. والتخيير: تكلف الخير، أي تطلب ما هو في أخير. والمعنى: إن في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء لأنفسكم، وتشتهونه لكم، كقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر:40]، وهذا توبیخ لهم وترقیع فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأمان الكاذبة.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ أقسمنا لكم ﴿بِالْعَلْقَةِ﴾ متناهية في التوكيد. وأصله بالغة أقصى ما يمكن، استعارة لمعنى «مغلظة»، شبهت بالشيء المبالغ إلى نهاية سيره. وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:149].

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ صفة لـ ﴿أَيْمَانُ﴾، أي أيمان مؤبدة لا تحلا منها فحصل من الوصفين أنها عهود مؤكدة ومستمرة طول الدهر. كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَحِي بِلَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:5] ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ تقضون من أماناتكم ومزاعمكم.

﴿سَلَّمُهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ﴾ الحُكْمُ ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل به، يدعيه ويصححه.. استفهام مستعمل في التهكم زيادة على الإنكار عليهم، وقد جعل الزعيم أحداً منهم زيادة في التهكم، وهو أن جعل الزعيم لهم واحداً منهم لدعوى عزتهم وكبرياتهم.

﴿أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا الزعم، ويواافقونهم عليه ﴿فَلِيأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم.

والآية إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إننا نعطي مثل ما يعطى المسلمين أو خيراً مما يعطونه، وهو أن يفرض أن أصنامهم تنصرهم وتجعل لهم حظاً من جزاء الخير في الآخرة.

وتنكير ﴿شُرَكَاءُ﴾ في حيز الاستفهام المستعمل في الإنكار يفيد انتفاء أن يكون أحد من الشركاء -أي الأصنام لهم- تنفعهم، فيعم أصنام جميع قبائل العرب المشترك في عبادتها بين القبائل، والمخصوصة ببعض القبائل.

قال الزمخشري: يعني أن أحداً لا يسلم لهم بهذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به. ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن يتثبتوا به من عقل أو نقل.

يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيْعُونَ (42) خَاشِعَةً
أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43)
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقٍ﴾ عن مجاهد قال: شدة الأمر، وعن ابن عباس: هو الأمر الشديد المفزع من الهول يوم القيمة.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيْعُونَ﴾ قال ابن كثير: روى البخاري عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال سمعت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (يُكَشِّفُ رُبُّنا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذَهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَاهِرُهُ طَبْقًا وَاحِدًا).

تنبيه: ظن بعض الناس أن الحافظ ابن كثير سلك هنا مسلك التأويل لصفة الساق، وهذا فهم خاطئ؛ وذلك لأن الحافظ ابن كثير فسر هذه الآية بحديث أبي سعيد -رضي الله عنه-

الله عنْهُ - ثم ذكر ما قيل في هذه الآية، وقد تكلم الإمام ابن القيم عن هذه الآية كلاماً بديعاً قال -رحمه الله- في «الصواعق المرسلة»:

"والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية: هل المراد الكشف عن الشدة؟ أو المراد بما أن الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضوع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله؛ لأنَّه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجرداً عن الإضافة منكراً، والذين أثبتو ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذ ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه: (فيكشف الله عن ساقه فيخرون له سجداً). ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيْعُونَ﴾ مطابق لقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (فيكشف عن ساقه فيخرون له سجداً). وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة، جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشف الشدة عن القوم لا كشف عنها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: 50]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: 75]، فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضاً فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة" انتهى

﴿خَاسِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ خشوع الأ بصار: هيئة النظر بالعين بذلة وخوف، استعير له وصف ﴿خَاسِعَةً﴾ لأن الخاسع يكون مطأطئاً مختفياً.

﴿تَرْهُقُهُمْ﴾ تخل بهم وتقرب منهم بحرص على التمكّن منهم، قال تعالى: ﴿تَرْهُقُهُمْ قَتْرَةً﴾ [عبس: 41] أي: تغشاها ظلمة وسود ذلة تغشاهم يوم القيمة ذلة العصيان السالف لهم.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ وهم قادرون على السجود لا علة تعوقهم في أجسادهم لسلامتها من العاهات والأمراض.

أي: تغشـاهم في الدار الآخرة ذلة بـإـجـراـمـهـم وـتـكـبـرـهـم في الدـنـيـا، فـعـوـقـبـوـا بـنـقـيـضـ ما كـانـوا عـلـيـهـ. وـلـمـ دـعـوا إـلـى السـجـودـ في الدـنـيـا فـامـتـنـعـوا مـنـهـ معـ صـحـتـهـمـ وـسـلـامـتـهـمـ كـذـلـكـ عـوـقـبـوا بـعـدـ قـدـرـتـهـمـ عـلـيـهـ فيـ الـآـخـرـةـ، إـذـا تـجـلـى الـرـبـ عـزـ وـجـلــ فـيـسـجـدـ لـهـ الـمـؤـمـنـونـ، لـا يـسـتـطـعـ أـحـدـ مـنـ الـكـافـرـينـ وـلـا الـمـنـافـقـينـ أـنـ يـسـجـدـ، بـلـ يـعـودـ ظـهـرـ أـحـدـهـمـ طـبـقـاـ وـاحـدـاـ، كـلـمـا أـرـادـ أـحـدـهـمـ أـنـ يـسـجـدـ خـرـ لـفـاهـ، عـكـسـ السـجـودـ، كـمـا كـانـواـ فيـ الدـنـيـاـ، بـخـلـافـ ماـ عـلـيـهـ الـمـؤـمـنـونـ.

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَيَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44)
وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُتَّقْلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

وبـعـدـ أـنـ اـسـتـوـفـيـ الغـرـضـ مـنـ مـوـعـظـتـهـمـ وـوـعـيـدـهـمـ وـتـزـيـفـ أـوـهـامـهـمـ أـعـقـبـ بـهـذـاـ الـاعـتـرـاـضـ تـسـلـيـةـ لـلـرـسـوـلـ -صـلـلـى الـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ- بـأـنـ اللـهـ تـكـفـلـ بـالـاـنـتـصـافـ مـنـ الـمـكـذـبـيـنـ وـنـصـرـهـ عـلـيـهـمـ.

﴿فَذَرْنِي﴾ وهذا تـهـدـيـدـ شـدـيـدـ، أـيـ: كـلـهـ إـلـيـ فـإـيـ أـكـفـيـكـ، وـهـذـاـ مـنـ بـلـيـغـ الـكـنـيـةـ، كـأـنـهـ يـقـوـلـ: حـسـبـكـ اـنـتـقـامـاـ مـنـهـ أـنـ تـكـلـ أـمـرـهـ إـلـيـ، وـتـخـلـيـ بـيـنـيـ وـبـيـنـهـ، فـإـيـ عـالـمـ بـمـاـ يـجـبـ أـنـ يـفـعـلـ بـهـ، قـادـرـ عـلـىـ ذـلـكـ.

وـهـيـ تـقـنـيـلاـ فيـ تـعـهـدـهـ بـأـنـ يـكـفـيـ مـؤـونـةـ شـيـءـ دـوـنـ اـسـتـعـانـةـ بـصـاحـبـ الـمـؤـونـةـ لـأـنـهـ أـقـدـرـ مـنـ الـمـعـتـدـيـ عـلـيـهـ فيـ الـاـنـتـصـافـ مـنـ الـمـعـتـدـيـ فـيـتـفـرـغـ لـهـ وـلـاـ يـطـلـبـ مـنـ صـاحـبـ الـحـقـ إـعـانـةـ لـهـ عـلـىـ أـخـذـ حـقـهـ، كـقـوـلـهـ تـعـالـيـ: ﴿وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمـلـ: 11] ﴿ذُرْنِي وَمَنْ حَلَقْتُ وَحِيداً﴾ [المـدـثـرـ: 11]

وـهـيـ أـيـضـاـ كـلـمـةـ يـقـوـلـهـاـ الـمـغـتـاظـ إـذـاـ اـشـتـدـ غـيـظـهـ وـغـضـبـهـ وـكـرـهـ أـنـ يـشـفـعـ لـمـنـ اـغـتـاظـ عـلـيـهـ.

وـهـذـاـ وـعـدـ لـلـنـبـيـ -صـلـلـى الـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ- بـالـنـصـرـ وـوـعـيـدـهـ لـهـمـ بـاـنـتـقـامـ فيـ الدـنـيـاـ لـأـنـهـ تـعـجـيلـ لـتـسـلـيـةـ الرـسـوـلـ.

﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وـتـسـمـيـتـهـ حـدـيـثـاـ لـمـاـ فـيـهـ مـنـ إـلـخـارـ عنـ اللـهـ تـعـالـيـ، وـمـاـ فـيـهـ مـنـ أـخـبـارـ الـأـمـمـ وـأـخـبـارـ الـمـغـيـبـاتـ، وـقـدـ سـمـيـ بـذـلـكـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 185] قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ
تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: 59-60] قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ
مُذْهَنُونَ﴾ [الواقعة: 81] أي: متهاونون مكذبون.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ نون المتكلم المشارك، والمراد الله وملائكته الموكلون بتسخير
الموجودات وربط أحوال بعضها بعض على وجه يتم به مراد الله، فلذلك جيء بنون
المتكلم.

﴿مِنْ حِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة، وزيادة النعم، من
حيث لا يعلمون أنه استدرج، وسبب هلاكهم، وذلك أجلب لقوة حسرتهم عند حدوث
المصائب بهم.. يقال: استدرجه إلى كذا، أي: استنزله إليه درجة فدراجه، حتى يورطه فيه.
كما قال: ﴿أَيَّحْسِبُونَ أَنَّا نُمْدِهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا
يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55-56]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأعراف: 44]
﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أمهلهم وأنسأ في آجاهم ملاوة من الزمان، لتكمل حجة الله
عليهم.

والإملاء ينفرد به الله وحده فلذلك جيء معه بضمير المفرد. ونظير هذه الآية قوله
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي
مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 182-183]

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ كيدي بأهل الكفر شديد قوي.

وفي البخاري عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) قال ثم قرأ ﴿وَكَذِلِكَ أَخْذُ رِبِّكَ
إِذَا أَخْذَ الْقَرِي وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

قال الزمخشري: الصحة والرزق والملد في العمر، إحسان من الله وإفضال، يوجب
عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم يجعلونه سبباً في الكفر باختيارهم، فلما تدرجوا به إلى
الهلاك، وصف النعم بالاستدراج. وقيل: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون
بالثناء عليه، وكم من مغور بالستر عليه. وسمى إحسانه وتمكينه كيداً، كما سماه

استدراجاً، لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة. ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك.

﴿أَمْ تَسأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على ما أتيتهم به من النصيحة، ودعوتم إله من الحق.. إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ﴾ المغرم: ما يفرض على المرء أداؤه من ماله لغير عوض ولا جنائية **﴿مُثْقِلُونَ﴾** المثقل: الذي حمل عليه شيء ثقيل عليه.

أي: أثقلهم الأداء، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنبوا الدخول فيما دعوتم إله. والمعنى: لم تطلب منهم على الهدایة والتعلیم أجراً فيثقل عليهم حمله حتى يبطّهم عن الإيمان.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به، فيجادلونك بما فيه، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به، وأنهم مستغلوون عن وحيه وتنزيله.

والكلام إضراب آخر انتقل به في مدارج إبطال معاذير مفروضة لهم أن يتمسّكوا بها تعلة لإعراضهم عن قبول دعوة القرآن.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْنُظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنْبَدَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وتأخير ظهورك عليهم، أي: لا يثنينك عن تبليغ ما أمرت به أذاهم وتكذيبهم، بل امض صابراً عليه.

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو نبي الله يونس بن متى -عليه السلام-، وقد كانت مؤاخذة يونس -عليه السلام- على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نينوى، فذهب مُغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقطام الحوت له، وشروع الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى

القدير، الذي لا يُرَدّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنباء: 87]. قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجْبَنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنباء: 88] وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيِّرِينَ لَلَّا يَتَبَلَّغُ إِلَيْهِ إِلَيْ يَوْمِ يُبَعْثُرُونَ﴾ [الصافات: 143-144] ﴿إِذْ نَادَى﴾ دعا ربه في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ والمكظوم: المحبوس المسدودة عليه والمملوء غيظاً وغمماً.

وجيء بهذه الحال جملة اسمية لدلالتها على «الثبات»، أي هو في حبس لا يرجى له سراح، وهذا تهديد لامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس.

والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر واللوئى عن التبليغ، فتبلي ببلائه. ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ﴾ التدارك: تفاعل من الدَّرَك وهو اللحاق ﴿نِعْمَةً﴾ التكير للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو قبول توبته، وتضرعه وابتهاه ورحمته ﴿لَنِذَّ﴾ طرح ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يعني أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء، ولو لا توبته ل كانت حاله على الذم.

فتقدير الكلام: لو لا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء نبذا ذمياً، أي ولكن يonus نبذ بالعراء غير مذموم.

وأدمح في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله، وأنه لو لا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميتاً فأخرجه الموج إلى الشاطئ فكان مثلاً للناظرین أو حيا منبوداً بالعراء لا يجد إسعافاً، أو لنجا والله غاضب عليه فهو مذموم عند الله مسخوط عليه. وهي نعم كثيرة عليه إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذاً خارقاً للعادة.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ فاصطفاه واختاره لواليته برحمته. قال القاشاني: ملكان سلامه فطرته، وبقاء نور استعداده، وعدم رسوخ الهيبة الغضبية، والتوبة عن فرطات النفس، فقربه تعالى إليه.

﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المفضلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** [الشعراء: 83] وذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات.

قال ابن عباس -رضي الله عنهم-: رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه.

وَإِنْ يَكُادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلُقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الْذِكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)

﴿وَإِنْ يَكُادُ﴾ صيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل.

الَّذِينَ كَفَرُوا عرف الله رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعض ما تتطوّي عليه نفوس المشركين نحو النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الحقد والغيبة وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن.

لَيَزْلُقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ الزلق: زلل الرجل من ملasse الأرض من طين عيها أو دهن، كما في قوله تعالى: **﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِنِ حَيْرًا مِّنْ جَنِّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلْفًا﴾** [الكهف: 40].

وما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالباً أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاص على وجه الكناية، ومنه قوله هنا **﴿لَيَزْلُقُونَكَ﴾**، أي يسقطونك ويصرعونك.

قال الزمخشري: "يعني أنهم من شدة تحديتهم، ونظرهم إليك شراراً، بعيون العداوة والبغضاء، يكادون ينزلون قدمك، أو يهلكونك، من قوتهم: نظر إلى نظراً يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل، لفعله".

وقال ابن كثير: **لِيَنْفِذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**، أي: **لِيَعْيِنُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إليك لولا وقاية الله لك، وحمايته إليك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله -عز وجل- كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

ففي البخاري باب «العين حق» عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: **(الْعَيْنُ حَقٌّ) وَنَهَى عَنِ الْوَشْمِ**.

وفي المسند بسند حسن لغيره عن ابن عباس -رضي الله عنهمَا- عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ، تَسْتَنْزِلُ الْحَالِقَ) هو الجبل العالى المنيف المشرف

وفي مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهمَا- عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقُ الْقَدَرِ سَبَقْتُهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتَغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا)

وفي المسند بسند صحيح عن أبي أمامة بن سهيل بن حنيف، أن أباه حدثه: أن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خرج، وسأروا معه نحوم مكة، حتى إذا كانوا يشعرون بالحرارة من الجحفة، اغتسل سهيل بن حنيف وكان رجلا أبيض، حسان الجسم، والجلد، فنظر إليه عامر بـ ربيعة أخوهبني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم، ولا جلد محبأة فلبط سهيل [صرع به]، فأتي رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهيل؟ [هل لك رغبة في إصلاح أمره] والله ما يرفع رأسه، وما يفique، قال: (هل تتهمون فيه من أحدي؟) قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة فدعاه رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عامرا، فتغيبَطَ عليه وقال: (علام يقتل أحدكم أحاه؟! هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟) ثم قال له: (اغتسل له) فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه، يصبه رجل على رأسه، وظهره من خلفه، يكفى القدر وراءه، ففعلا به ذلك، فراح سهيل مع الناس ليس به بأس.

وصفته عند العلماء أن يؤتى بقدح ماء ولا يوضع القدر على الأرض بل يحمله شخص فيؤخذ من القدر غرفة فيتمضمض بها ثم يجها في القدر ثم يؤخذ منه ما يغسل به وجهه ثم يأخذ بشماله ما يغسل به كفه الأيمن ثم بيمنيه ما يغسل به مرفقه الأيسر ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين ثم يغسل قدمه اليمنى ثم اليسرى ثم ركبته اليمنى ثم اليسرى على الصفة المتقدمة وكل ذلك في القدر ثم داخلة إزاره وهو الطرف المتذلي الذي يلي الأيمن وإذا استكمل هذا يقوم الذي في يده القدر فيصبه على رأس المعين من ورائه على جميع جسده ثم يكفى القدر وراءه على ظهر الأرض من خلفه.

وهذا المعنى لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه وليس في قوة العقل الاطلاع على أسرار جميع المعلومات فلا يدفع هذا بأن لا يعقل معناه.

وفي البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهمَا- قال كان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يعوذ بالحسن والحسين ويقول: (إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِكَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ

بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ) اللامة ذات اللهم وهي كل داء وآفة تلم بالإنسان من جنون وخبيل وغير ذلك.

وفي سنن ابن ماجة عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه - قالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَعَوَّدُ مِنْ عَيْنِ الْجَاهِ مُمَّ أَعْيَنِ الْإِنْسِ فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعْوَدَاتِنِ أَخْدَهُمَا وَتَرَكَ مَا سَوَى ذَلِكَ . [صحيح]

وفي مسلم عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه - أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ فَقَالَ نَعَمْ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ .

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ بين أن هذا النظر كان يشتغل بهم في حال قراءة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للقرآن .

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ من الهدىان الذي يهذى به في جنونه، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه، والتنفير عنه.

يقولون ذلك اعتلا لا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلا للطعن فيه، فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأنه جنون ليتقلوا من ذلك إلى الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ الذكر: التذكير بالله والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأنه فيه صلاح للناس .

﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم، على ما في عقوبهم وفطحهم من التوحيد. فكيف يجتنب من جاء بمثله؟

وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ مع قوله في أول السورة: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2] محسن رد العجز على الصدر .

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com